انتهى الدرس .. ولكن
هل انتهى المسرح ؟

بعد مسرحيته الأولى الفاقدة الوعى .. شكلاً .. (**سندريلا والمداح**) ومسرحيته الثانية الفاقدة الهوية .. مضموناً (**عيب يا آنسة**) ، ومسرحيته الثالثة الفاقدة كل شىء .. شكلا ومضمونا (**نحن لانحب الكوسة**) ، تجىء مسرحيته الرابعة .. (**انتهى الدرس ياغبى**) ، عملا لا أقول مقبولا ومعقولا وكفى بل أقولها باطمئنان عملا جادًّا وجيداً سواء فى شكله أو فى مضمونه . إنه البداية الحقيقية لفرقة المسرح الجديد ، أو بالأحرى هو الميلاد الجديد لهذا المسرح الجديد ..

فهنا مسرحية جديدة الطعم والمذاق بالنسبة للمسرح التجارى الذى استغرق فى الضحك والإضحاك حتى أغرق معه الجمهور ، وهو منذ البداية الإضحاك الحسى والاستهلاكى الرخيص ، وهو فى النهاية الضحك على عقل وقلب الجمهور .. أقول إنها جديدة لخلوها من هذا كله ، ومحاولتها أن تقول شيئاً جادًّا عبر (**الضحك الفنى**) المنبثق من الموقف الفكاهى والحدث الكوميدى ..

فما الذى تقوله هذه المسرحية ؟

تقول إن الداء الذى أصاب إنسان عالمنا المعاصر ، ليس هو أنيميا الذكاء ولكنه أنيميا الحب ، ففى عصر لم يعد يخيف الناس فيه إله ولا عدالة ولا قدر ،

وإنما تخيف الناس حوادث المواصلات ، وثورات الطلاب ، وتهديدات السلام ، والخوف من اندلاع حرب عالمية ثالثة تستخدم فيها الأسلحة النووية ، فى عصر تجرى فيه العمليات الجراحية لزراعة القلوب ، ونقل الأمخاخ ، وتحويل الذكر إلى أنثى ، وتخليق الأطفال فى أنابيب الاختبار ، فى عصر أفلست فيه الأيديولوجيات . وجاءت الثورة التكنولوجية لتقضى على كل قوانين الحتمية .. الحتمية المادية والحتمية التاريخية وحتى الحتمية العلمية ، بعد أن أصبح مبدأ اللاتعين أو (عدم التحديد) هو قانون العلم الفيزيائى الحديث ..

فى عصر كهذا ، وصل الذكاء البشرى فيه إلى الذروة ، حتى التهم كل شىء . ولم يعد يبقى أمامه إلا أن يلتهم نفسه ، لاتصبح مشكلة العلم هو محو الغباء ، وزيادة معدلات الذكاء ، ولكنها تعقيم الحقد ، واستئصال غدد الكراهية ، وتنشيط غرائز الحب ، فليس الذكاء وإنما الحب ، هو خلاص إنسان عصرنا المعاصر .

هذه المعانى هى التى تدور حولها هذه المسرحية (**انتهى الدرس ياغبى**) ، وصحيح أنها مأخوذة عن الفيلم الأجنبى (**تشارلى**) الذى وضع قصته (**دايفل كيس**) ، وكتب له السيناريو (**ستيرلنج سيرفانت**) وأخرجه « **رالف ميسون** » مخرج الفيلم الأمريكى الشهير (**العسكرى الأزرق**) وقام ببطولته « كليف روبرتسون » و « كلير بلوم » وحصل على جائزة الأوسكار لأحسن ممثل ، ولكن الصحيح أيضاً أن الإعداد المسرحى الذى قام به « **لينين الرملى** » ، مهما يكن لنا عليه من تحفظات ، فإنه فى النهاية الإعداد الذى حقق قدراً واضحاً من الذكاء والنجاح . فالمسرحية تبدأ بالدكتور الطبيب « فريد » الذى تشغله عملية محو الغباء البشرى عن طريق تنشيط تلك الزائدة الغامضة فى المخ ، التى تسمى بالجسم الصنوبرى ، والتى تتدلى مثل ترمسة صغيرة فى المخ بلا وظيفة معروفة ، وكان يعتقد

فى الماضى أنها مركز الاتصالات الروحية ، وهو الاعتقاد الذى رفضه العلماء فى العصر الحديث .

ويكلف الدكتور « فريد » ابنته نبيلة التى تعمل مساعدة له ، بالبحث عمن يجرى عليه هذه التجربة .. على أن يكون من الغباء بحيث لاتزيد درجة ذكائه على درجة ذكاء فأر ، وتنجح نبيلة فى الحصول على « سطوحى » .. شاب ضائع لايعرف له أب من أم ، ولا يعرف لنفسه هوية ، وجد هكذا هائماً على وجهه فى المقابر . وبعد أن تجرى عليه اختبارات الذكاء ، وخاصة اختبار (الفأر فى المتاهة) ، يكتشف أن ذكاءه أقل من ذكاء الفأر ، وأن عمره العقلى لايزيد على سبع سنوات ، وهو البالغ من العمر ٢٥ سنة ..

ويجد الدكتور « فريد » فى الشاب « سطوحى » هدفه المنشود ، الذى يجرى عليه تجربته العلمية ، متحدياً زميله الدكتور « شفيق » الذى طالما شككه فى التجربة وأكد له فشلها مراراً ، وتنجح التجربة ويكسب الدكتور « فريد » الجولة الأولى ، ولا يبقى أمامه إلا أن يتلقى « سطوحى » عدة دروس فى محو الأمية وفى تعلم الإتيكيت الاجتماعى ، قبل أن يقدمه فى المؤتمر الطبى أمام أجهزة الإعلام ، وأمام الرأى العلمى العالمى .

وتتولى « نبيلة » تلقينه هذه الدروس ، التى تنقله من مستواه الحشرى الأول إلى المستوى البشرى الجديد ، ولكنه فى نهاية الدروس يكون قد وقع فى حبها وهى المخطوبة لابن عمها « سامى » الفتى الرياضى الثرى . ويحاول « سطوحى » أن يقبل « نبيلة » فى درس الرقص الأخير ، ولكنها تصفعه على وجهه مذكرة إياه بمستواه الطبقى ، فلا يجد أمامه إلا أن يهرب من جو هذا البيت ، ومن حياة هذه الأسرة .

ويختفى « سطوحى » عاماً كاملا ، تنهار فيه أحلام الدكتور « فريد » ، ويفقد

القدرة على الحياة ، فتكتب « نبيلة » إعلاناً فى كل الصحف تناشد فيه « سطوحى » أن يظهر رحمة بأبيها الطبيب المريض ، وبالفعل يظهر « سطوحى » إنساناً جديداً فى كل شىء ، فى مظهره الخارجى ، وفى سلوكه الاجتماعى ، وفى ثقافته العامة ، وفى خبرته بالحياة ، وتقع « نبيلة » فى حبه ، ولكنه يعرض عنها ، ويتعالى على الجميع بعد أن يوافق على حضور المؤتمر ، وفى المؤتمر يعلن الدكتور « فريد » عن معجزته العلمية ، بعد أن يعرض سطوحى فى صوره القديمة ، وبعد أن يشير إليه فى مظهره الجديد ، ذكيًّا بعد أن كان غبيًّا ، مثقفًا بعد أن كان جاهلاً ، ثريًّا بعد أن كان فقيراً ، متحضراً بعد أن كان همجيًّا لايعرف شيئاً عن أى شىء .

و يدرك « سطوحى » خطورة المأساة ، مأساة انتكاسته بعد شهرين ، وعودته إلى حالته الأولى ، تماماً كما انتكس فأر التجربة ، فيفوت على الدكتور « فريد » وابنته « نبيلة » حلاوة هذا النجاح ، وبعد أن يلقى درسه على الجميع ، فى أن خلاص الإنسان ليس فى الذكاء ولكنه فى الحب ، يفتعل الانتكاسة التى تفضح كل أولئك الذين عبثوا بعقله وعواطفه وكيانه البشرى كله ، وبهذه النهاية المضحكة فى أسف ، أو بهذا الحلم الوردى الذبيح ، ينتهى الدرس ، وبانتهائه تنتهى المسرحية .

وقد وفق الإعداد المسرحى فى إيصال المعنى وإبلاغ الفكرة ، كما وفق فى بلورة شخصية البطل المحورى الذى تدور حوله أحداث المسرحية ، هذا بالإضافة إلى توفيقه فى الالتزام بعنصر الجدية داخل الإطار الكوميدى ، أما الذى لم يوفق فيه الإعداد فهو الاحتفاظ بالحبكة المسرحية حتى النهاية ، فبدلا من أن ينتهى الفصل الأول على إجراء العملية ليبدأ الفصل الثانى بالعملية وقد أجريت بالفعل ، لنرى آثارها طوال هذا الفصل ، نفاجأ فى الفصل الثانى « بسطوحى » وهو لايزال فى تخلفه العقلى ، غير قادر على أن يسبق الفأر فى المتاهة ، وعندما يتحدى الفأر

ويسبقه بعد ذلك ، لاندرى هل كان ذلك بفعل العملية أم بسبب عوامل أخرى ، كذلك لا أدرى لماذا حرص الإعداد على وحدة المكان طوال الفصول الثلاثة ، وهو ما أدى إلى التداخل المفتعل بين جو البيت وجو العيادة ، ولو كان المعد أكثر تمرسًا بفن المسرح ، لأدار الفصل الأول فى البيت ، والثانى فى العيادة ، وجعل الفصل الثالث والأخير خاصًا بالمؤتمر ، فالمشهد الخاص بالمؤتمر كان أشبه بالشىء المعلق فى نهاية المسرحية ، لاهو بالفصل الرابع ولا هو من قبيل (الإبيلوج) المسرحى ، وإلا كان لزاماً عليه أن يستهل المسرحية بما يشبه (البرولوج) المسرحى ، هذا على الرغم من خطر المشهد الأخير وخطورته فى وقت واحد .

وصحيح أن شخصية « سطوحى » كانت كاملة الاستدارة ، ولكن هل كان له فى مرحلته الأولى تحت البشرية ، التى لاهم له فيها إلا الأكل ، أن يرفض الجنس مع الخادمة « سنية » ، حفاظاً على مشاعر الحب مع الآنسة « نبيلة » ؟ وإذا كان قد افتعل الانتكاسة فى مشهد المؤتمر الطبى ، فما الذى دفعه إلى ذلك ؟ ومن أين جاءه أنه سينتكس بعد شهرين من تاريخ انعقاد المؤتمر؟ هذه التساؤلات جميعا لانكاد نجد لها إجابة فى المسرحية .

على أنه إذا كانت شخصية « سطوحى » رغم هذا كله ، قد جاءت كاملة الاستدارة ، فقد كان ذلك على حساب أكثر الشخصيات الأخرى ، فالدكتور « فريد » مثلا تأرجحت شخصيته بين العالم الحقيقى الذى يضحى بحياته من أجل تجاربه العلمية كما قال فى نهاية المسرحية ، وبين الطبيب الانتهازى الذى لايهمه سوى نجاح المؤتمر مهما كان الثمن . والدكتور « شفيق » أيضاً تاهت شخصيته بين جنون العالم العبقرى ، وبين هذيان النصاب المشعوذ ، أما شخصية « سلوى »

الصحفية فلا ندرى لماذا رسمت بكل هذه « الهيافة » والتسطيح ، بل لا ندرى ماهو مبرر كل هذه السخرية والاستهزاء بدور الصحافة ؟

ويجىء الإخراج ليؤكد قدرة « **السيد راضى** » على تقديم كوميديا أقل ماتوصف به أنها أكثر نظافة ، من كل أعماله الكوميدية السابقة ، فقد نجح فى تجسيد المضمون المسرحى ، وبلورة الشخصيات الكوميدية ، وإدارة أحداث المسرحية من خلال إضحاك لا إسفاف فيه ولا ابتذال. وربما كان الاستثناء هنا هو مشهد درس الإتيكيت فى الفصل الثانى الذى لم يكن محكم الأداء ، والذى أدى إلى الإطالة والإملال ، وكذلك مشهد المؤتمر الذى كان هزيلا بشكل صارخ ، يفتقر إلى الكثير من عناصر الديكور والإكسسوار والموسيقى والإضاءة ، التى تضفى عليه جو الرهبة والإقناع ، هذا بالإضافة إلى كثرة الأسئلة الصحفية بين (سلوى) وسطوحى والتى أدت إلى هبوط الإيقاع ، وأخيراً نهاية المسرحية حيث يُسدل الستار على « نبيلة » وهى تعطى ظهرها فى أسى وندم للجمهور ، وهى النهاية الضعيفة الفاترة التى لانكاد تشعر معها بانتهاء المسرحية.

فإذا تناولنا الديكور ، لكررنا هنا ماسبق أن قلناه ، من أنه كان يحتاج إلى مزيد من التعبير ومزيد من الثراء ، كأن تدور أحداث الفصل الأول فى البيت ، والثانى فى العيادة ، والثالث فى المؤتمر ، فإذا تغاضينا عن الديكور الواحد فى الفصلين الأولين ، كان ينبغى أن يحدث أى تغيير على ديكور الفصل الثالث ، حتى نشعر بمرور عام بأكمله على غياب « سطوحى » ، أما ديكور مشهد المؤتمر ، فلم توفق « **نهى برادة** » فى تجسيده على الإطلاق ، كان هزيلا بشكل صارخ ، بل كان فقيراً بشكل فاضح .

أما الموسيقى التى قام بتوليفها ولا أقول بتأليفها « **مرسى الخطاب** » ، فكانت أى

كلام ، مجرد ألحان ملصقة بالمسرحية من الخارج ، دون أى تعبير عن المضمون ، أو تصوير للشخصيات ، أو تفسير للمعنى الكلى العام ، وماكان أحوج هذا العرض إلى موسيقى عصرية من نوع الموسيقى الألكترونية مثلاً ، تساعد على تصوير مافيه من جوانب علمية وطبية ، وتفسير مايعتمل فى كيان البطل من تحولات ذهنية وعاطفية فضلا عما يصيب باقى الشخصيات من توترات عصبية وأحداث مثيرة .

فإذا انتقلنا إلى الأداء التمثيلى ما وجدنا جديداً نقوله فيما يتعلق بعملاق المسرح .. « **محمود المليجى** ، **وتوفيق الدقن** » ، فكلاهما له حضوره المسرحى ، وسرعة تجاوبه مع الجمهور ، وكلاهما له تمرسه المسرحى وقدرته على الدخول تحت جلد الدور ، وقد نلاحظ عليهما التأرجح والاهتزاز فى أداء الدور ، لعدم عثور كل منهما على مفتاح الشخصية ، مما أصاب أداءهما التمثيلى بقدر واضح من عدم الإقناع ، ولو أن مسئولية ذلك تقع على عاتق الإعداد من ناحية ، والإخراج من ناحية أخرى .

أما « **خيرية أحمد** » ولو أنها وفقت إلى حد كبير فى أداء دورها ، إلا أنها بوجه عام لم تكن هى الملائمة تماماً لهذا الدور ، فالدور كان يحتاج إلى (**فيديت**) مسرحية أصغر سنًّا ، وأخف حركة ، وأكثر جاذبية ، حتى تقنعنا بتكافؤ العلاقة العاطفية بينها وبين « **محمد صبحى** » ، ذلك النجم المسرحى الجديد الذى إذا أسقطنا من حسابنا أدواره القليلة السابقة ، التى حسبت عليه أكثر مما حسبت له ، لقلنا إنه استطاع أن يرد اعتباره فى هذا الدور ، وأن يكشف عن ممثل مثقف وموهوب ، نجح فى الانتقال بدوره من النمطية الكاريكاتيرية إلى الشخصية الكوميدية ، بفضل قدرته الذاتية على التلوين والتعبير ، إنه هنا نسيم جديد يهب على حياتنا المسرحية ، يبشر بعطاء فنى وفير .

وبعد .. فقد انتهى الدرس فعلا ، الدرس الذى تعلمته فرقة (المسرح الجديد) من عروضها الهزيلة والهزلية السابقة ، حتى كان هذا العرض الأكثر نظافة والأكثر جدية ، برغم كل ما لنا عليه من تحفظات ، والسؤال هو : إذا كانت هذه المسرحية ميلاداً جديداً **لفرقة المسرح الجديد** ، فهل بانتهاء الدرس ينتهى هذا المسرح ، أم أنه سيكون درساً لباقى أغبياء المسرح التجارى ؟ ..

obeikandl.com